خرّيجو الكلية والشرق الادنى

سادتي وسيداتي واخواتي وتلاميذي

اقترح عليّ منظمو هذا الاحتفال ان ألقي على مسامعكم كلمة موضوعها «موقف متخرجي الكلية في تجديد حياة الشرق الادنى» . واني آسف جدًّا لان حالتي الصحية منعتني من ان آتي بيروت وألقي هذه الكلمة بنفسي . ولو اقتصر الامر على ذلك لهان لان الكلمة يلقيها عني مَن هو اقدر مني ولكنها حرمتني مشاهدة اخواني واصدقائي . مشاهدة تلاميذي وتلاميذهم . مشاهدة مسقط رأسي ودار تربيتي لبنان الشامخ بمجده المستمر بجماله وبيروت الزاهرة بمدارسها المتشحة بمفاخر تاريخها كعبة الطلاب ومنتدى رجال العلم والفضل

نعم ان حالتي الصحية منعتني من الوقوف امامك ايها الرئيس الجليل فرع آل ضدج الكرام لاهنئك بما نلتَ من ثقة رجال هذه الجامعة بك ولاشكر بواسطتك كل فضلاء اميركا الذين اوصلوا هذا المعهد الى ما تراهُ فيهِ الآن

لي الفخر يا سادتي وسيداتي اني كنت اول تلميذ دخل المدرسة الكلية حينما انشئت سنة ١٨٦٦ . اتعلمون ماذا كانت . اجيلوا الطرف في هذا المنتدى الواسع الاطراف وانظروا الى ما حولهُ من المباني الفخمة وما فيها من وسائل التعليم والتهذيب . وارجعوا معي بافكاركم سبعاً وخمسين سنة الى بقعة صغيرة في هذه المدينة امام المدرسة الوطنية التي انشأها الوطني الطيب الذكر المرحوم بطرس البستاني . في تلك البقعة بناء صغير من طبقتين في كلٍّ منهما خمس غرف عارية . هنالك كنا نتعلم وهنالك كنا ننام . هنالك زرعت البزرة الصغيرة التي نمت منها هذه الدوحة الكبيرة . زرعها رئيسنا الاول الجليل القدر الخالد الاثر الدكتور داتيال بلس يساعدهُ هنا اخوانهُ الثلاثة فانديك وورتبات وبوست وجماعة من المرسلين الاميركيين وفي اميركا الاسرة الكريمة اسرة ضدج واصدقاؤها . نمت هذه الشجرة الكبيرة من تلك البزرة الصغيرة وبعثت بأثمارها الى كل اقطار المسكونة . ايَّة بلاد لا يُرى فيها خرّيجو المدرسة الكلية السورية الانجيلية . سورية . مصر . العراق . اوربا . اميركا الشمالية . اميركا الجنوبية . جنوب افريقية . زيلندا الجديدة . استراليا . فيلبين . الهند . اليابان . في هذه البلدان كلها انتشرت ثمارك ايتها الجامعة .

رجال قابلوا مطالب الحياة بهمة الرجل وما منهم الا كل بر بك داع لتأييدك ودوام عزك

تسألونني يا سادتي ان اعود الى موضوعي واشرح لكم «موقف متخرجي الكلية في تجديد حياة الشرق الادنى» على ما اراهُ . فاسمحوا لي ان اقص عليكم خبراً صغيراً تمهيداً لكلامي وارجو ان تغتفروا ما فيهِ من الانانية

جرى لي قبيل انتهاء الحرب العظمى حديث مع مستشار انكليزي من مستشاري الوزارات المصرية شكا في عرض الكلام من ان الموظفين الوطنيين لا يبدون الهمة الواجبة في القيام بما يطلب منهم . فقلت لهُ ان كان الامر كما تقول فسببهُ انكم لا تلقون المسؤولية الواجبة على الموظف الوطني ولا تجعلونهُ يشعر انهُ مسؤول عن الاعمال التي تناط بهِ بل وضعتم في مراكز الحكومة المختلفة اناساً منكم ونظتم بهم المسؤولية كلها فصار الموظف الوطني يشعر كأنهُ غير مطالب بشيء . فلم يعرهُ هذا الكلام على ما ظهر لي . وانتقلنا الى مواضيع اخرى . وقبلما ودعتهُ اخبرني ان قائد الجيش كتب اليهِ يمدح الاطباء الوطنيين مدحاً جزيلاً لقيامهم بتطبيب المرضى والجرحى احسن قيام . فقلت لهُ الا ترى هنا ما يؤيد كلامي فان الطبيب يشعر انهُ هو وحدهُ المسؤول عن المريض الذي يعالجهُ وهذا سر اهتمامهِ بهِ . ففكر هنيهة ثم قال اصبت

وانا ارى يا سادتي ان موقف خريجي الكلية في تجديد حياة الشرق الادنى يتوقف على المسؤولية التي تلقى على عواتقهم او التي يشعرون انها ملقاة عليهم . نعم ان الحر النذب يطالب نفسهُ بكل ما يستطاع ولو لم يطالبهُ بهِ احد ولكنهُ اذا كان يحاول العمل فيمنع منهُ وتسد في وجههِ المسالك أسقيط في يدهِ وخارت عزيمتهُ . كذا كانت الحال من نحو سنة ١٨٨٠ الى عهد غير بعيد ولهذا اضطر كثيرون من خريجي هذه المدرسة الى مغادرة وطنهم والالتجاء الى بلاد اخرى حيث يتسع لهم مجال العمل ولم ينسوا مع ذلك وطنهم الاول ولا بذلوا ما امكن من السعي لارتقائهِ

ولارتقاء البلدان شرائط اخصها ان تكون مما يقبل الارتقاء وان يكون رجالها من ذوي الهمة والاقدام وان تكون الوسائل التي يتوسلون بها مما يؤدي الى الارتقاء وان تتاح لهم الفرصة للعمل بها

والشرق الادنى مصر والشام والعراق وايران وبر الاناضول وجانب كبير من جزيرة العرب اقدم البلدان عمراناً ولم يقع ذلك اتفاقاً وانما كان لسبب طبيعي وهو ان هذه البلدان في وسط منطقة معتدلة في حرها وبردها ومطرها وقيظها . اراضيها خصبة مراعيها نضرة . فيها من المعادن ما تمس اليه حاجة العمران . الحديد والنحاس والفضة والذهب . تجود فيها الحبوب على انواعها والاشجار الثمرة على اختلاف اشكالها . تحيط بها مرافىء البحار من الشمال والغرب والجنوب وتتصل من الشرق بمهد السلالات البشرية التي تجددت منها دماء الشعوب في العصور الخوالي

فالبلدان التي الكلام عليها بلدان الشرق الادنى كان فيها اعظم ممالك الارض مصر وبابل واشور وفينيقية واليمن وايران واسيا الصغرى فهي من حيث اقليمها وتربتها وموقعها الجغرافي اهلٌ لان تكون من ارق بلدان المسكونة

وسكانها الحاليون من نسل تلك الامم القديمة الراقية المجيدة التاريخ . بنية اجسامهم واشكال رؤوسهم وتقاطيع وجوههم واوزان ادمغتهم تدلُّ كلها على انهم من ارق امم الارض . وحسبهم انهُ من اسلافهم نشأ مشترعو الاديان الثلاثة العظمى . وان آثار عمرانهم اعظم ما خلفهُ الاقدمون للمحدثين . وابناؤهم الذين اتيح لهم الآن ان يتعلموا ما يتعلمهُ الاوربيون والاميركيون او يهاجروا الى بلاد تظهر فيها اقدار الرجال علميةً كانت او فنية او صناعية او تجارية لم يقصّروا عن منافسيهم من سائر امم الارض

فالبلاد وسكانها متوافرة فيها وفيهم الشروط اللازمة للنجاح . فهل تتاح الفرص لخريجي الكلية السورية الانجيلية — هل تتاح الفرص لخريجي هذه الجامعة لكي يشاركوا الساعين في اعادة الشرق الادنى الى مجدهِ الغابر . واذا اتيحت فهل ثبت بالامتحان انهم اهل لذلك والجواب نعم واليكم الدليل

من تلامذة هذه المدرسة رجل توفي بالامس . رجل درس هنا في هذا المعهد ولعب في ساحاته وشارك اخوانهُ التلامذة في كل اعمالهم ثم هاجر الى القطر المصري وجاهد جهاد الحياة فيهِ وفي اوربا واخيراً اسلم انفاسهُ في مدينة تيس تحت عملية جراحية . وقد شهد لهُ حاكم انكليزي واسع الخبرة حصيف الرأي لا يكيل القول جزافاً انهُ « ما من سفير من السفراء معروف ومقبول في لندن اكثر من حداد باشا معتمد الملك فيصل فيها »

ومن خريجي هذه المدرسة رجل تعلم فيها وعلّم ثم هاجر الى القطر المصري وقد عُرض رأيهُ ورأي جماعة من كبراء الانكليز في مسألة مالية قضائية على سعيد بريطانيا في القطر المصري وكان رأيهم مخالفاً لرأي ابن هذه المدرسة . فصوب السعيد رأيهُ وعُمل بهِ وعليهِ المعوّل الآن

ومن خريجي هذه المدرسة رجل هاجر الى البرازيل وعني بالزراعة والصناعة والتجارة فصار لهُ اوسع مزارع البن في تلك البلاد واكبر معامل الغزل والنسج فيها. وتقدر ثروتهُ الآن بالملايين

ومن خريجي هذه المدرسة اطباء ومدرسون ومؤلفون ومحررون . رجال يعملون في كل عمل ومطلب وهم في المقام الاول بين الرجال العاملين . ولكن اكثرهم في غير وطنهم فلو اتيح لهم ولسائر اخوانهم ان يكون عملهم في الشرق الادنى منذ اول انشاء هذه المدرسة افتظنون انهم كانوا قصروا فيما يجب عليهم من الاهتمام باحيائهِ

قد يخطر لكم يا سادتي انني احصر الإحياء والارتقاء في الماديات . ومن المحتمل ان الافكار كانت متجهة غالباً الى الماديات واننا كنا نحسب التفوق المادي هو التفوّق كلهُ . لكن الحرب الاخيرة ازالت الستار عن العيون وابانت ان المنزلة الاولى يجب ان تكون للارتقاء الادبي لتهذيب النفس لتطهير الاخلاق للسير في سبل الانصاف والاستقامة . للصدق في القول والعمل والبعد عن كل ما يشين . واي معهد من معاهد التعليم اقدر من هذا المعهد على تهذيب النفوس وغرس الاخلاق الفاضلة

هنا هنا في هذا المعهد يتعلّم التلميذ ان يكرم نفسهُ ويرفعها عن الخسائس . هنا هنا يتعلّم ان يكون منتصفاً ومتصفاً . هنا هنا يمارس محبة الحق والمجاهرة بهِ ومقاومة ما يشينهُ والبعد عن المكر والمخاتلة . هنا هنا يتعلم ان للحياة تكاليف ولا بدّ من القيام بها فاذا تولى عملاً بذل جهدهُ للقيام بهِ امينًا عادلاً

قد لا تكون الفطرة طيبة فلا تُصلح مهما حاولت اصلاحها ولكن فِطَر الشرقيين فِطرُ خير في الغالب فاذا دُرّبت في سبل الخير ظهر جوهرها كما يظهر جوهر الحجارة الكريمة بصقلها

منذ ثلاث وخمسين سنة وقفتُ مثل هذا الموقف لالقي خطبتي الانتهائية حينما

انتهت دروس صفي . كانت المدرسة الكلية قد انتقلت بتلاميذها الى بيت السيد فتيحه وهناك دار رحبة في وسط المنزل كما في اكثر بيوت بيروت الكبيرة وحضر الاحتفال والي سورية وترجمانهُ الشاعر الشهير خليل افندي الخوري . كان ارتقاء سورية النقطة التي نصبي اليها . كانت دروس استاذنا الجليل داود ستورت ضدج في الاقتصاد السياسي وشرائع الممالك ترمي الى ذلك فاوحت اليَّ ان جعلتُ موضوع خطبتي « الوسائل اللازمة لارتقاء سورية » . كتبت الخطبة وعرضتها على استاذي الدكتور ورتبات فاستحسنها فاستظهرتها والقيتها بما استطعتهُ من حماسة . ذكرت فيها ما يجب على السكان ولكن لم اغض عما يجب على حكومتهم . وكان خليل افندي الخوري يترجم للوالي ما يظهر انهُ عسر عليهِ فهمهُ فصفق الوالي مراراً ثم هنأني واخذ الخطبة مني وكأن لسان حالهِ يقول اصبتَ واحسنت وستفعل بما اشرت . واستمرَّت البلاد تتدرج في الرقي بضع سنوات لان اللسان والقلم كانا حرَّين مطلقين حتى حسدتنا مصر على ما كنا فيهِ من رقي ادبي ومادي . ولكن تولى السلطان عبد الحميد فوقفت البلاد هنالك او عادت القهقرى . وتاريخ ما حدث في السنوات الاربعين التالية معروف لديكم وقلما اتيح فيها لابناء هذه المدرسة ان يتجروا بالوزنات التي تسلَّموها مع ان المدرسة لم تقصر في تعليمهم وتهذيبهم فهاجر اكثرهم الى بلدان اخرى كما تقدم

والآن — والآن نرجو كانا ان تكون الحال قد تغيرت كل التغير وان يتسع امامكم يا اصدقائي خريجي هذه المدرسة ميدان العمل في بلادكم . فليكن شعاركم حب الوطن الذي تنتسبون اليهِ وبذل ما في الوسع لتجديد حياتهِ المادية والادبية وارجاعهِ الى المنزلة العليا التي كان فيها بين بلدان المسكونة . ولا تنسوا ان وطنكم اهل لذلك وان عيوناً كثيرة ترقبكم ومن يعطونهُ كثيراً يطالبونهُ باكثر . وانت ايها الرئيس الجليل لقد برهنت في سنوات الحرب الماضية انك الرجل الذي يعرف كيف يحيا لغيرهِ كيف يعلِّم بقدوتهِ كما يعلم بلسانهِ . كيف يكتسب القلوب ويمتلكها « وما ملكَ سوى ملك القلوب » . فانت خير خلف لبلس الاول وبلس الثاني وهما ينظران اليك الآن من عالم الارواح فسر في طريقك آمناً واثقاً بالله وحولك من الاساتذة والمدرسين هذا الجم الغفير الذي برهن معك على ان إحياء الشرق الادنى غايتهُ العظمى